من الفاتحة

تأليف: عبد الهادي رويس

جلس الشيخ عمرو على الأريكة الوثيرة المملوءة قطنا ناعما تجعل كل من يجلس عليها يغط في نوم عميق، إلا أن الشيخ أخذ على نفسه عهدا بأن يخالف هواه و يتحدى كل من يقف في مرماه، حيث يقرأ و يقرأ و يقرأ على ذات الأريكة دون أن ينام كنموذج على العالم الرباني الذي لا يستسلم مهما كان وكانت هذه عادته منذ شبابه.

جلس و بدأ يستذكر ما كان في فترة صباه من قراءته لتفسير سورة الفاتحة من كتاب تفسير القرآن العظيم لابن كثير حيث تاه به خياله في ذكريات سريالية حول هذه السورة الكريمة؛ و هو في أحلامه سمع مارا في الحي يقول لصاحبه و هو يحاوره: أن الصلاة واجبة و فرض و يجب عليه أن لا يضيعها، لكنه قال بكل تغطرس: أنا ملحد.. لم أعد مؤمنا..حتى سورة الفاتحة نسيتها.

هنا صدم الرجل أو الفتى إن كنا دقيقين، كيف لهذا الصاحب الكريم أن يلحد و كيف له أن ينسى سورة ما زال يرددها منذ أن كان صغيرا ! إن هذا لشيء عجاب، لكنه توقف قليلا لأن الشيخ عمرو ناداه و قال له:لا تتعجب يا ابني فهذا ألحد و نسي ما كان يحفظه عن ظهر قلب، ألم تعلم أن بلعام بن باعوراء انسلخ من آيات الله و كفر به بعد أن كان يعلم الاسم الأعظم، هنا سكنت جوارحه و علم أن القلوب بيد الله يصرفها كيف يشاء، لكنه قال: سيدي إني وجدتك عالما، و تأكدت أن الحفظ بدون فهم و تدبر خسران كبير قد يؤدي بالانسان إلى المهالك، لذلك أستميحك أن تعلمني شيئا مما علمك الله، و لو كانت الفاتحة هي

البداية لكان خيرا، فإني لم أقرأ في حياتي تفسيرا لها من أي كتاب مكتفيا بما أسمعه من المشايخ، و أخاف أن يحصل لي مثل ما حصل لصديقي فأصير ملحدا و أنسى هذه السورة التي ما أنزل في التوراة و لا في الإنجيل مثلها. طمأنه الشيخ و قال له: لا تحزن يا ولدي سأعلمك و سأكون لك نعم المعلم.

****

جاء الشاب و كان اسمه نوفل- في اليوم التالي – فوجد الشيخ ينتظره على ذات الأريكة و بدأ يعلمه من كنوز هذه السورة العظيمة فاتحة القرآن.

بدا على ملامحه نوع من الرعب أو الانبهار إن صح التعبير و هو يتّبع خطا الخادم تجاه غرفة الشيخ و ذلك لأن المكان بجدرانه المملوءة كتبا ذات الحجم الكبير أثارت في نفسه نوعا من القشعريرة و الشعور الذي لم يألفه من قبل، لكن الخادم أنس طمأنه و قال: أن هذه الحالة يشعر بها كل من زار الشيخ لأول مرة، لأن مهابة الكتب و الأرواح الساكنة فيها ليس بعدها مهابة، حيث يحتوي بيت الشيخ على حوالي ثمانين ألف كتاب مجلدة أنخم تجليد تجلب النظر و تأخذ باللب.

الشيخ: هل تعلم لماذا سميت الفاتحة بهذا الإسم؟

الشاب: ربما لأن بها افتتح القرآن.

- صحيح ذلك صحيح، و كذلك لأن بها افتتح القراءة في الصلاة.

-هل لها أسماء أخرى يا سيدي؟

-نعم نعم بكل تأكيد، فكل ذي قيمة يكون له أكثر من إسم، ألم تعلم أن الله جل جلاله له من الأسماء ما لا يعلمه إلا هو كما في الدعاء المأثور:{...أسألُك بكلِّ اسمٍ هو لك سميتَ به نفسَك أوْ علَّمْتَه أحدًا مِنْ خلقِك أو أنزلته في كتابِك أو استأثرتَ به في علمِ الغيبِ عندَك...}و كذلك النبي له أكثر من إسم فهو أحمد و محمد و العاقب و الماحي إلى آخره... كذلك سورة الفاتحة لها أكثر من إسم فهي فاتحة الكتاب و أم القرآن و السبع المثاني و الصلاة و أساس القرآن و الواقية و الكافية...

كان الشاب ينصت باهتمام كأن على رأسه الطير لكن فجأة رن هاتفه على نغمة رائعة من نغمات السيدة فيروز ، اعتذر للشيخ مستأذنا و أجاب.

كانت المتصلة أخته خديجة تقول له: أن أمه لسعتها عقرب و هم الآن في المشفى و تصر عليه أن يحضر ليطمئن على صحتها، أذن له الشيخ و دعاه لأن يقرأ سورة الفاتحة عليها فإنها رقية، قال: حسنا شكرا لك.

******

قالت الأم لابنها متألمة:أن الأمر سيكون على ما يرام فلا تقلق، قال الابن: و الله إني لقلق يا أماه ألا تذكرين أن عمي مات السنة الماضية بسبب السم ألا تذكرين ذلك، إني أخاف أن يحصل لك مثل ما حصل له فتموتين كما مات، قالت له: لا تكن متشائما يا بني فإن الأعمار بيد الله و

لا يمكن لسم و لا لغير سم أن يميتنا أو يحيينا ؛ الله وحده هو المحيي المميت لا شريك له..هنا تذكر ما قاله له الشيخ عن الفاتحة،فنفث في يده ثم قرأ الفاتحة فمسح على أمه إقبالا و إدبارا، بعد هنيهة.. و كأنما أمه نشطت من عقال، استغرب نوفل أيما استغراب و قال في نفسه متعجبا ألهذه السورة كل هذا التأثير، لو كنت أعلم لما تركت عمي يموت ربما أنقدته لكنه استدرك قائلا: الحمد لله..الحمد لله..بدا الاستغراب كذلك على العائلة فقالوا له متسائلين: كيف فعلت ذلك؟ قال:علمني شيخي أن هذه السورة رقية و قال لي ارق بها أمك،فعلت فكانت النتيجة ما ترون. قالت خديجة: سبحان الله..سبحان الله..

قالت الأم: جزاك الله خيرا يا بني، أريد منك أن تسأل الشيخ عن أصل هذه المسألة لتكون لي حجة أقولها لكل من أنكر علي. قال: إن شاء الله.

******

قال له الشيخ أن أصل المسألة موجود في كتاب مسلم من حديث أبي سعيد الخدري أن ناسا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا في سفر ، فمروا بحي من أحياء العرب ، فاستضافوهم فلم يضيفوهم ، فقالوا لهم : هل فيكم راق ؟ فإن سيد الحي لديغ أو مصاب ، فقال رجل منهم : نعم ، فأتاه فرقاه بفاتحة الكتاب ، فبرأ الرجل ، فأعطي قطيعا من غنم ، فأبى أن يقبلها ، وقال : حتى أذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ، فقال : يا

رسول الله والله ما رقيت إلا بفاتحة الكتاب فتبسم وقال : وما أدراك أنها رقية ؟ ثم قال : خذوا منهم ، واضربوا لي بسهم معكم.

قالت الأم:سبحان الله إن هذا الدين لشيء جميل، أدعوك أن لا تترك هذا الشيخ فإني أراه عالما ربانيا و منذ أن تعرفت عليه و نحن في يمن و بركات، يا له من شيخ فاضل.

أقامت العائلة حفلا حضره أعضاؤها و الشيخ حمدا لله و شكرا على شفاء الأم و بعد أحاديث و قيل هنا و قال هناك، تقدم الشيخ ليقول كلمته الوعظية الخفيفة،تحدث فيها عن نعم الله تعالى على العبد و ما تستوجبه من الحمد و الشكر، كما تحدث عن رحمانية الله بخلقه كموضوع مناسب لجو الحفل، فبدأ قائلا و هو يسأل نوفل عن معنى كلمة الحمد لله الواردة في الفاتحة،لأنه قد أعاره قبلا كتاب تفسير ابن كثير ليقرأ منه،ليكون التجاوب أسرع و ليكون التلميذ أقدر على الفهم وأبرع.

قال:قال أبو جعفر: ومعنى (الْحَمْدُ لِلَّهِ) : الشكر خالصًا لله جل ثناؤه دون سائر ما يُعبد من دونه، ودون كلِّ ما برَأَ من خلقه ، بما أنعم على عباده من النِّعم التي لا يُحصيها العدد، ولا يحيط بعددها غيره أحدٌ، في تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح أجسام المكلَّفين لأداء فرائضه، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق، وَغذَاهم به من نعيم العيش، من غير استحقاق منهم لذلك عليه، ومع ما نبَّههم عليه ودعاهم إليه، من الأسباب المؤدِّية إلى دوام الخلود في دار المُقام في النعيم المقيم. فلربِّنا الحمدُ على ذلك كله أولا وآخرًا. و هم نوفل بالزيادة لكن الشيخ قال له حسبك أظن أن الحاضرين قد فهموا.

******

جاءت أخت نوفل الذكية التي كان عمرها خمس سنوات على استحياء جريء و قالت للشيخ سائلة:ما معنى الرحمان الرحيم؟ فلقد سألتنا عنها المعلمة و قالت أن من يأتي بالإجابة الصحيحة ستكون له مكافأة قيمة..أرجوك يا شيخ علمني معناها لا أريد أن تفلت مني المكافأة، تبسم الشيخ ضاحكا من قولها و لثمها لثمة لطيفة على خدها و قال: الرحمان الرحيم..أخذت الفتاة ورقة و قلما و بدأت تكتب..اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، و رحمان أشد مبالغة من رحيم و عن عيسى عليه السلام أنه قال: و الرحمان رحمان الدنيا و الآخرة و الرحيم رحيم الآخرة، قال ابن جرير بسنده قال العرزمي: الرحمان لجميع الخلق و الرحيم للمؤمنين. قالت الفتاة شكرا يا شيخ هذا يكفي، رغم أني لم أفهم منه إلا القليل لكني سأستذكره و سأستعين بأخي إن شاء الله، أظن أن المكافأة ستكون من نصيبي لا أظن أن أحدا سيأتي بمثل هذا الجواب، لثمته ثم ولت مدبرة.

******

بعد هذه الأحداث ببضع ليال توفي الشيخ و ترك إرثا عظيما من الكتب و المعارف و ترك الفتى نوفل الذي سيصبح وريثه الشرعي بدون منازع.